

بناء النموذج الافتراضي في البحث السوسيولوجي

د/ جلاي عبد الرزاق

د/ إبراهيم بلعادي

قسم علم الاجتماع

جامعة قالمة.

Résumé :

L'objectif visé est d'expliquer les différentes étapes de l'élaboration du corps d'hypothèses pour la recherche sociologique, en montrant en premier lieu son rôle et son importance dans la comparaison du modèle théorique (Problématique) aux données du terrain (enquête empirique).

Les méthodologues considèrent la construction des hypothèses, comme opération fondamentale dans les études scientifiques. Elle exige une capacité intellectuelle pour pouvoir traduire les concepts (notions abstraites) en dimensions et puis en indicateurs (notions mesurables et vérifiables par les données du terrain). De plus, elle nécessite une maîtrise des analyses mathématiques et statistiques (analyse causale, factorielle etc....).

Cette complexité de l'élaboration des hypothèses a ouvert une brèche à la vision simpliste, répondue dans nos travaux universitaires, qui les a remplacé par des questions, sans connaître la nuance de taille entre les deux modèles d'une part, et sans concorder les techniques utilisées aux questions posées d'autre part.

المخلص:

تتناول هذه المقالة كيفية بناء النموذج التحليلي للفرضيات وطرائق اختبارها في البحث السوسيولوجي كاشفة عن الانزلاقات المعرفية التي سقطت أو هوت فيها الطروحات التبسيطية التي جعلت من هذه المرحلة الأساسية التي يقوم عليها مجمل البحث مجرد خطوة من ضمن الخطوات، بل أكثر من ذلك عوضت بأسئلة دون إدراك حالات وجوب كل منهما.

من هنا سعت هذه المقالة إلى الكشف عن كل الجوانب المختلفة للفرضية ابتداء من تاريخها إلى غاية اختبارها امبريقيا مرورا بكيفية الإجراءات التي يجب اعتمادها في تحويل المفاهيم إلى أبعاد ومنها إلى مؤشرات تضمن القيام بعمل إجرائي وهي من أعقد الخطوات في بناء النموذج الافتراضي الذي تقتضيه كل دراسة علمية.

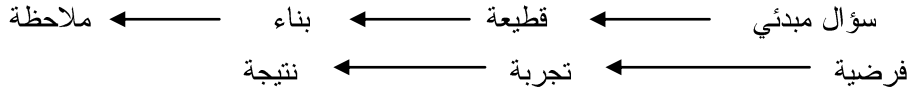
مقدمة:

إن استقلالية العلوم الاجتماعية عن الفلسفة تمت بعد عناء كبير ومواجهات حادة مع رجال الفكر آنذاك حيث استهجنوا هذا الصنيع ونعتوه بأنه ضرب من الهراء وخطاب يتناول على العلمية لذلك نجد شارل بيغي Charles Pegy يقول في هذا الصدد قولته المشهورة (1) " أناس لم يتعلموا العلم مطلقاً ولا يعرفون عنه كلمة، لم يدرسوا قط الرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا فوقعوا في خطأ فادح "إذ اعتبروا الشمع نوراً والآداب علوماً وبهذا سيضيعون الآداب ولا يتحكمون في العلم".

لم ينتبه الرافضون لهذه المعرفة الجديدة إلى التغيرات الكبرى التي مرت بها المجتمعات الغربية في القرن الثامن والتاسع عشر " الثورة الصناعية، ظهور النظام الرأسمالي الخ.... والتي ولدت وضعيات اجتماعية جديدة ومشكلات مختلفة ومتعددة ولم تعد المعرفة المجمعـة " الفلسفة " قادرة على تقديم فهم دقيق لها، بل اعتقدوا جازمين بأن الغاية المنشودة من وراء ذلك هو الحصول على مكانة علمية لهذه المعرفة في المؤسسات الجامعية واكتساب أصحابها حظوة في الأوساط الأكاديمية والاجتماعية(2)

مما زاد تعقيد عملية الاستقلالية هو افتناء مقاربة ومنهجية العلوم الطبيعية وهو أمر سليم لأن العلوم الاجتماعية كانت في مرحلة التأسيس ولا تملك من الزاد المعرفي ما يسمح لها بالاعتماد على ذاتها. (3) أضف إلى ذلك أن العلوم الطبيعية هي معيار الدقة والصحة وهو هدف مؤسسي العلوم الاجتماعية الذين سعوا إلى إقامة معرفة صادقة تكون الفاصل بين الآراء وتتجاوز الطروحات الفلسفية السائدة بخاصة وإن مواضيع الدراسة في العلوم الاجتماعية هي رهانات اجتماعية كبرى. Les objets d'études des sciences sociales sont des enjeux sociaux importants.

دون الدخول في نقاشات إبستمولوجية حول خصائص المعرفة العالمية نذكر بان جمهرة العلماء يعرفون العلم بأنه البحث وفق قواعد محددة عن تفسير للأشياء. فهو ليس بخطاب مطلق بل هو تأويل مرحلي أي يحمل مبدأ التكذيب Principe De Le falsifiabilité كما بين ذلك كارل بوبر Karl Popper (4). لذلك نتبع فيه المسار الآتي :



إن بناء مواضيع العلوم الاجتماعية يعد من أعسر المسائل، ولذلك يلزمنا بيار برديو Pierre Bourdieu باستعمال اليقظة الابيستيمولوجية La vigilance épistémologique (5) نظرا لسهولة الانزلاق في وهم الشفافية L'illusion de la transparence باعتبار أن الباحث فرد من المجتمع ومعاشته للواقع توهمه بأنه يعرف مكوناته ويفقه طرائق اشتغاله. إن التمييز بين ماهو اجتماعي وما هو علم اجتماعي Ce qui est social et ce qui est sociologique مسألة أساسية في بناء المعرفة العلمية إذ يجب إحداث قطيعة مع الأفكار المسبقة التي أنتجت التنشئة الاجتماعية وشكلت لدى الفرد بما اسماء جورج غريفيتش Georges Gurvitch الرفقاء الصامتون Les partenaires silencieux (6) حتى نتجاوز الظواهر المخادعة والزائفة كما بين روبرت مرتن Robert Merton هذه المسألة (7). وهنا ندرك لماذا وضع مؤسسو علم الاجتماع وهم ذوي تكوين في العلوم الدقيقة هذا العلم في قائمة العلوم مشيرين إلى تعقده. هذا ما يدفع بنا إلى التساؤل هل يمكن إجراء دراسة علمية بطريقة عمياء؟ أي كيف يمكن للتخبط أن يسمح بادراك الأشياء علما أن البحث هو التفكير في اللامفكر فيه Penser L'impensable. الباحث كما يقول انشتين Einstein يجب عليه بقدرته العلمية ومنهجية أن يدرك خبايا الأشياء " كالساعاتي الذي يدرك الميكانيزم من خلال العقارب دون فتحها ". أيضا كيف يتمكن الباحث من الوصول إلى الموضوعية العلمية ومراقبة نظريته الخاصة ومنها اجتماعيته المركزية sociocentrisme بخاصة وان الموضوع السوسيولوجي هو متعدد Objet pluriel بل أكثر من ذلك كونه يتميز بالتعقيد complexité وفق أطروحة ادغار موران Edgard Morin (8). أخيرا هل يمكن التوصل دون إتباع إجراءات منهجية ومنها الفرضية إلى معرفة تتسم بالصدق والثبات المرحلي كما اعتقد السوسيوغرافيون Sociographes الذين اكتفوا بوصف الظواهر معتقدين أنهم عاشوها واستمعوا إليها، علما بأن وصف الأشياء هو إعادة إنتاج وجهة

النظر لأن كل تصور هو بناء بعبارة باشلار Bachelard " " toute " " représentation est une construction".

ندرك هنا لماذا غستون بشلار Gaston Bachelard يجزم بأنه لا يوجد موضوع علمي جاهز Objet Préparé بل إن الموضوع العلمي هو مغزى، مبني ومشخص (ملاحظ) (9) L'objet scientifique est Conquis, Construit et Constaté من هذا المنطلق يمكن أن نشير إلى أن خطوات البحث السوسيولوجي تكون على النحو الآتي:

- أ-سؤال مبدئي: ينطلق منه الباحث وهو ليس وليد المعايشة بل نتيجة قراءات.
- ب-قطيعة: بين المعرفة العفوية وليدة التنشئة والمعرفة العالمية وذلك بالاعتماد على ما ورد في أدبيات المصادر والمراجع المعتمدة.
- ج-بناء الموضوع: بصيغة تجعله قابلاً للتحصيل.
- د-صياغة الفرضية: أي تقديم تفسير احتمالي للموضوع.
- هـ- تشكيل النموذج المنهجي: أي تحديد المناهج والتقنيات المعتمدة وعلاقتها ببعضها وقدرتها وملاءمتها لبحث الفرضيات المصاغة.
- و-ملاحظة أو مقارنة الظاهرة: في الواقع المعيشي.
- ز-نتيجة: من خلال مقارنة الفرضية بالواقع (10).
- 1 - مقارنة الملموس والمجرد :

دون الزج في متاهات المدارس الفكرية التي تناولت مصادر المعرفة هل هي استنباطية أم استقرائية ؟ وأيهما سبق من الآخر ؟ وما هي حجج كل منهما في ذلك ؟ ألا يمكن أن نقول أننا عندما نفكر بأننا نستقرئ إذ تأتي مباشرة المحاولات التفسيرية التي هي نتيجة استدلالات سابقة والعكس صحيح فعندما نفكر بأننا نستنبط فإن الاستدلال الذي صغناه تشكل دون شك من ملاحظات سابقة.

فالباحث الذي يعتمد على الاستنباط أي على نظرية قائمة تسمح له ملاحظة الظواهر بإعادة النظر في جزء منها أو في كلها. إذا كان الاكتشاف العلمي يحمل خاصية استقرائية فإن الاستنباط والاستقراء في علاقة تكاملية وضرورية لأن التصور والملاحظة

هما مرحلتان أساسيتان في المسار البحثي ويتجلبان في كل خطواته. وحمى القول هناك دراسات تنطلق من بناء نظري ومنه تصوغ فرضيات ثم يتم التحقق منها ميدانيا وهذا ما يسمى بالاستدلال الاستنباطي. كما أن هناك دراسات تعتمد مباشرة على ملاحظة الواقع ومنه تحاول أن تستنتج تفاسير نظرية وهذا ما يسمى بالاستدلال الاستقرائي.

هناك مسألة ثانية تستوجب التوضيح والتأكيد وهي أن الاختيار بين الفرضية وتحديد الهدف لا يتم بشكل عفوي وجزافي. فالهدف يتجلى من خلال سؤال يسعى إلى تفاسير ممكنة وأما الفرضية فتعتمد على التحقق المستمر من تفسير قائم. الاختلاف لا يعني دقة وصحة احدهما عن الآخر حتى وان وجدنا قراءات تجعل من الأبحاث القائمة على الفرضيات أكثر صدقا وهو في حقيقة الأمر نتيجة ارث هيمنة العلوم الطبيعية التي تعتمد أساسا على اختبار الواقع

المطلوب من الباحث أن يختار ما يلاءم بحثه إذ لا يمكن القيام بدراسة تعتمد على أهداف والباحث يملك من المعطيات ما يسمح له بتشكيل فرضية وهو ما يحصل في الأبحاث الجامعية ببلادنا. الباحث الذي يعتمد على هدف لا يمكنه البتة أن يتنبأ بنتائج بحثه بل يجب عليه الإعلان بطريقة واضحة عن المعطيات التي تسمح له بالإجابة عن تساؤلاته.

يمكن أن نقول أن الهدف والفرضية يتموقعان في الوسط بين حصيلة ما وصلت اليه المعرفة العلمية في ذلك الموضوع « état de la question » و مرحلة إقامة النموذج المنهجي(11).

نماذج دراسات تعتمد على أهداف	نماذج دراسات تعتمد على فرضيات
تحديد ما تمتلكه الأمهات من ذكريات حول مختلف مراحل تطور أبنائهم مقارنة مع الآباء	تحتفظ الأمهات بذكريات محددة عن مختلف مراحل تطور أبنائهم أكثر من الآباء
حصر انتظارات المراهقين ذكورا وإناثا لمستقبلهم المهني	تملك المراهقات انتظارات محددة لمستقبلهن المهني أكثر من المراهقين

2- تاريخية الفرضيات:

لتقريب ما المقصود بالفرضيات وتوضيح تجلياتها المختلفة ارتأينا تقديم الحادثة العلمية الآتية:

يعود تأكيد الفرضية كخطوة أساسية في البحث العلمي إلى القرن التاسع عشر وبالضبط إلى سنوات 1844-1848- وهذا لا يعني أنها لم تستعمل من قبل - لكن لم تظهر بالصورة الواضحة والجلية كما حدث على يد الطبيب المجري Ignace-Semmelweis (12) في التاريخ المذكور أعلاه. لقد كان هذا الطبيب يشتغل في مستشفى بفيانا " Vienne " بإحدى المصحات الخاصة بالأمومة والولادة، وكان المستشفى يحتوي على مصلحتين: الأولى يترأسها هو، والثانية يترأسها طبيب آخر.

أول ما لاحظ هذا الطبيب هو ارتفاع معدل النساء اللواتي يلدن في مصلحته ويصبن بحمى النفاس " fièvre puerpérale " والتي تؤدي في غالب الأحيان إلى وفاتهن، بينما لاحظ انخفاض معدل الوفيات في المصلحة الثانية. هذه الظاهرة تركت في نفسه حيرة وأثارت تساؤلات عدة، لماذا ؟ وكيف ؟ ولذلك حاول إيجاد تفسيرات لها.

أول ما قام به هو رفض كل التفسيرات التي تعيق البحث ولا تتطابق مع الواقع، كالتفسيرات القدرية واللاهوتية التي ليست لها علاقة بالموت المنتشرة داخل مصلحته، واحتفظ فقط بالتفسيرات التي باستطاعتها الخضوع إلى الاختبارات. ومن بين ما اقترح في هذا المجال ما يلي:

-**الافتراض الأول:** إن ارتفاع الوفيات راجع إلى العدوى التي أدت إلى تفشي المرض. لكن بعد اختبار هذا الفرض تأكد بأنه إن كانت هناك عدوى فلماذا لم تنتقل إلى المصلحة الثانية، وعليه تم تكذيبه.

-**الافتراض الثاني:** إن ارتفاع الوفيات يعود إلى الاكتظاظ والازدحام داخل المصلحة، لكن بالمقارنة مع المصلحة الثانية لاحظ أن الاكتظاظ أقل وبذلك فند هذا الافتراض.

-**الافتراض الثالث:** إن نوعية التغذية والعلاج هما السبب في ارتفاع الوفيات. لكن بإجراء مقارنة مع المصلحة الثانية اتضح انه لا يوجد اختلاف في ذلك فكذب هذا الافتراض الثالث.

إذن ما العمل يا ترى؟

في سنة 1846 قامت الحكومة الإمبراطورية (13) بتشكيل لجنة تحري في هذه المشكلة داخل المصلحة التي يترأسها فايس Weis، فتوصلت لجنة التقصي بعد سنة إلى أن سبب ارتفاع الوفيات في هذا المكان بالذات يعود إلى قلة خبرة المتربصين وإلى الأخطاء المرتكبة وقررت بذلك تخفيض عددهم إلى النصف وتعويض الآخرين بقبالات محترفات، لكن رغم تنفيذ هذا القرار بقي الأمر مطروحا والوضعية على حالها . السبب إذن ليس قلة خبرة الطلبة المتربصين، لأن أخطاء القبالات لا تقل خطورة عن أخطاء الطلبة. راح الطبيب مرة أخرى يبحث عن تفسير آخر ففكر في العوامل النفسية، ليس هذا من باب الصدفة ولكنه لاحظ أنه عندما تموت امرأة من بين الحوامل في المصلحة يحدث للنساء الأخريات فزع وخوف وبخاصة عند رؤية القس متبوعا بخادم يدق ناقوسا معلنا الوفاة . لذلك طلب الطبيب من القس الاحتجاب عن النساء أثناء أداء طقوس الموت حتى لا يحدث هلع عند الباقيات ويجعلهن عرضة لحمى النفاس ومنه الموت. لكن هذا الاختفاء لم يغير من الأمر إلا الشيء القليل.

هنا زادت حيرة الطبيب في تفسير هذه الظاهرة ففكر أخيرا بإدخال نفس الترتيبات المستعملة في المصلحة الثانية عليه يتوصل إلى تخفيض عدد الوفيات، لكن ذلك لم يشفع له وبقي الموضوع قائما.

في بداية سنة 1847 جرى حادث في المستشفى كان مؤشرا حاسما للطبيب Weis لحل معضلته. لقد قام طبيب آخر وهو زميل فايس Weis بتشريح جثة امرأة فأصيب خطأ بالمشروط " Scalpel " من طرف أحد الطلبة فانتقل المرض إلى الطبيب المصاب وتوفي بعد ذلك متأثرا بالجرح. أثناء مرضه لوحظ عليه الأعراض المرضية التي كانت تظهر على النساء الحوامل، ومنه فكر الطبيب فايس أن هناك علاقة بين قضية التشريح وتطور المرض عند النساء. بالفعل فالطلبة المتربصون في مصلحته هم الذين يقومون بعملية التشريح، وبالتالي هم الناقلون للعدوى. هكذا توصل الطبيب فايس Weis إلى نتيجة مفادها أن مريضاته يمتن بنفس صنف تسمم الدم، وانه وطلبته هم ناقلوا العنصر المسؤول عن الإصابة إلى قاعات الولادة بعد إنهاء درس التشريح وفحص النساء مباشرة بعد

تنظيف سطحي لأيديهم. لاختبار فكرته اقترح الطبيب الحل الآتي: "يمكن تفادي حمى النفاس بالقضاء كيميائيا على العنصر المعدي الذي يلتصق بالأيدي وأمر كل طلابه بغسل أيديهم في محلول كيميائي قبل فحص أية مريضة. هذا الإجراء أدى إلى انخفاض الوفيات بسرعة في مصلحته. وهذا ما يثبت صحة فرضيته خاصة وأن فايس Weis لاحظ أن معدل الوفيات في المصلحة الثانية كان دوما منخفضا لأن المريضات يعالجن من طرف قابلات لا علاقة لهن بتشريح الجثث.

رأينا إذن كيف أن فايس اختبر عدة فرضيات كانت كلها بمثابة حلول ممكنة، وهذا يبين أن حركة الفكر أي الذهاب والإياب والبحث عن الحل كلها تتمحور حول الفرضية.

3- تعريف الفرضية:

الفرضية هي إحدى مميزات الفكر العلمي، وتعني الاستكشاف وتساعد الباحث على معرفة المسار الذي يجب أن يأخذه البحث وأي الطرق أغنى وأنفع للدراسة. فهي خطوة أساسية في البحث العلمي وتعد من أعقد المراحل لأنها ليست مقدمة بشكل مجاني وإنما هي حصيلة قراءات ومعطيات استكشافية حول موضوع الدراسة (14).

إن وجدت عدة تعاريف فإن القاسم المشترك بينها هو التأكيد على أنها اقتراح للإجابة عن سؤال مطروح. كذلك تحاول أن تقيم علاقة بين ظواهر ومفاهيم ذات دلالة مهمة ومعتمدة. بعبارة أخرى يمكن القول بأنها تنبؤ احتمالي يضعه الباحث للتحقق منه إما منطقيا أو ميدانيا، (15) إما لإثباته أو دحضه (16) وعليه يمكن أن نركز أساسا عند تحديد الفرضية على الخصائص الثلاثة الآتية :

أ - **الملفوظ "Enoncé"**: إن الفرضية هي ملفوظ أو طرح يعبر عنه في جملة أو أكثر عن علاقة محتملة بين مصطلحين (Notions) أو ظاهرتين (Faits).

ب - **التنبؤ "Prédiction"** إن الفرضية هي تنبؤ بما سنكتشفه في الواقع، فهي إجابة مقترحة، معقولة ومقبولة عن السؤال المطروح للبحث.

ج - **أداة تحقق "Outil de vérification"** يجب أن تملك الفرضية أيضا خاصية التحقق الميداني، لأن هذا الأخير يعتبر من أهم اهتمامات العلم وهو يعني ملاحظة الواقع بتوجيه من الفرضية للتأكد من صدقها .

4- دور الفرضية في البحث العلمي:

يمكن أن نحدد دور الفرضية كما يلي:

أ - الفرضية هي الخط الموجه للبحث " Le fil conducteur de la recherche "، وهي ذات فعالية كبرى لأنه عندما تتشكل فهي تعوض السؤال المبدئي.

ب - تساعد على توجيه الباحث نحو الوقائع التي يمكن ملاحظتها وقياسها وبذلك تعد وسيلة انتقاء لهذه المعطيات حتى يأخذ الباحث الأدق منها.

ج - تقييم العلاقة بين الظواهر الأساسية ذات الدلالة لأن دور عالم الاجتماع هو الربط بين الظواهر الاجتماعية انطلاقاً من التمييز بين الواقع الاجتماعي والواقع السوسيولوجي الذي يقول بشلار G.Bachelard " لا علم إلا بالخفي " Il n'y a de science que par le latent (17) فلم الاجتماع لا يعطينا صورة وصفية للمجتمع بل تفسير سوسيولوجي للواقع الاجتماعي من خلال ربط الظواهر الاجتماعية.

د - تسمح بتفسير الظواهر وتعطيها معنى منطقياً ومتناغماً logique et cohérence وتعطي الدلالة والمغزى للمعطيات المستقاة من الواقع.

ه - يتعلق أيضاً دورها بإمكان الوصول إلى تعميمات نظرية لأنه إذا أثبتت صحتها يمكن إدماجها كعنصر أساسي في نظرية أعم أو جعلها نقطة انطلاق نحو بناء نظرية جديدة.

5- الإشكال المختلفة للفرضيات:

كما أسلفنا إن الفرضية هي اقتراح يفترض علاقة بين مفهومين (Concepts) أو ظاهرتين (Phénomènes) ذلك حسب الحالات أو الدراسات. إذن الفرضية هي اقتراح مرحلي proposition provisoire يتطلب التحقق Vérification ويمكن أن تأخذ شكلين مختلفين:

الشكل الأول:

- تظهر في علاقة بين ظاهرة ومفهوم ذلك (Entre faits et concepts)، مثلاً الفرضية التي اعتمدها الآن توران " Alain Touraine " القائلة: "إن الحركة الطلابية في فرنسا تحمل في نفس الوقت حركة اجتماعية (Mouvement social) قادرة على المقاومة

من أجل غايات عامة ضد هيمنة اجتماعية "(18). هنا افترض علاقة بين الحركة الطلابية Agitation Etudiante ومفهوم الحركة الاجتماعية، الذي عرفه في نموذج التحليلي حول الاصطدام "Confrontation" حيث أراد أن يبحث هل هذا الاصطدام ظرفي فقط أم هو تعبير عن حركة اجتماعية مهيكلة لها قادة، أهداف، إستراتيجية.... وهذا عبر مقارنة التصور والطريقة التي يستعملها زعماء الحركة الطلابية في ثورتهم مع الخصائص النظرية للمفهوم، مما يسمح باختبار الفرضية والوصول إلى فهم الحركة الطلابية.

الشكل الثاني:

- ويتمثل في الفرضية الأكثر انتشارا واستعمالا في العلوم الاجتماعية والتي تظهر في شكل علاقة بين مفهومين أو بين الظاهرتين اللتين يعرفهما هذان المفهومان. ففي علم الاجتماع الفرضية التي أقامها دوركهيم والتي تشير إلى أن نسبة الانتحار تخضع إلى درجة التضامن الاجتماعي، فهي تفرض علاقة بين مفهومين أو ظاهرتين (الانتحار والتضامن الاجتماعي).

المهم أن الفرضية في شكلها هي التي تدلنا على نوع أو نمط الملاحظة والميدان الذي سلاحظ فيه، وكذلك العلاقة بين ما لاحظناه حتى نعرف مدى صدق أو كذب الفرضية مع الواقع أو مع الأحداث.

6- مصادر الفرضية:

أ- قد تكون ناتجة عن ملاحظة عادية للظواهر في الحياة اليومية.

ب- أو ناتجة عن إعداد نظري صرف Elaboration purement théorique وليس بالضرورة أن تشكل في شكلها القابل للاختبار.

ج- أو ناتجة عن ظواهر اكتشفت خلال بحث، لكن له غايات أخرى.

د- أو الاستعانة بالتفكير المبني على القياس Analogie، فالفكرة الجديدة قد تأتي من التشابه بين الظواهر.

ه- أو ناتجة عن ظواهر يمكن انتظارها (19).

7- صياغة الفرضية:

لتحقيق ذلك يرى المنهجيون " بأنه من المستحسن أن ينطلق الباحث من سؤال مبدئي كما أسلفنا ومنه شيئا فشيئا يقيم ويبني موضوعه ويصوغ فرضياته. إذن من هنا نقول أن ما يقتضيه البحث العلمي هو أن تشكل الفرضية وفق ألفاظ تسمح فيما بعد للملاحظة والتحليل بتقديم جواب عن السؤال المطروح، وهنا يتوجب علينا التذكير بخصائص هذا السؤال وهي كالآتي:

أن يكون:

واضحا Claire

محددا Concise

هادفا Pertinente (20).

وإذا كان المشكل المطروح مع الفرضيات هو كيف نطرح سؤالاً جيداً فإننا نقول بأن تجاوز هذه العقبة يتم بامتلاك الخصائص الآتية:

أن يمتلك الباحث أرضية معرفية معمقة حول موضوع الدراسة وله القدرة الفكرية على ربط الأفكار ببعضها، لأن إنشاء الفرضيات غير معطى لكل الأفراد، فهناك تفاوت في القدرات بين الباحثين.

أن تكون له القدرة المنهجية لمساءلة الواقع.

أن يتمتع بخيال سوسيولوجي Imaginaire sociologique حسب عبارة رايت ميلز Wright Mills، أي له نوع من الحدس المتميز، وهو نوع من القدرة على اختيار الوضعيات الأكثر إحياء ودلالة (21).

8- التحليل المفهمي:

تتضمن الفرضية مفاهيم تعني التمثيل الذهني العام والمجرد لظاهرة أو لظواهر ما، والعلاقة فيما بينها. بعبارة أوضح أن المفهوم يحتوي على مجموعة من العناصر تحت تسمية واحدة، هذا ما يستدعي تحليلاً مفهمياً Analyse conceptuelle وهو ضروري لاستقاء شروط البحث العلمي والوصول إلى الموضوعية في الطرح:

فرضيات ← مفاهيم ← أبعاد ← مؤشرات.

Hypothèses → Concepts → Dimensions → Indicateurs

المقصود بالتحليل المفهمي هو تحليل أو ترجمة المفاهيم المطروحة في الفرضية إلى مؤشرات يمكن قياسها. فالتحليل المفهمي هو سيرة مرحلية لتحقيق ما يمكن ملاحظته على أرض الواقع، يبدأ باستخراج مفاهيم الفرضية أو مفاهيم هدف البحث، ثم يتواصل بتفكيك كل مفهوم لاستظهار أبعاده Dimensions أي المظاهر التي يجب أخذها بعين الاعتبار، وأخيراً ترجمة الأبعاد إلى مؤشرات Indicateurs يمكن ملاحظاتها (22). نذكر هنا بأن التحليل المفهمي يختلف عن الحدس Intuition الذي يقوم على المعرفة العامة أو معرفة الحس المشترك Sens commun لأنه أكثر موضوعية، والعمل العلمي يتطلب الاعتماد على موقف علمي وليس على الحدس والأفكار المسبقة والمتوارثة عن الموضوع.

9- مراحل التحليل المفهمي:

المرحلة الأولى: تحديد دقيق وعملي للمفاهيم المطروحة:

لنأخذ الفرضية الآتية كمثال: "موارد كل من الزوجين تحدد سلطتهما الأسرية" (23). فأهم مفاهيم هذه الفرضية هي: موارد الزوجين / والسلطة الأسرية. موارد الزوجين هي مختلف الوسائل التي يملكها كل من الزوج والزوجة. السلطة الأسرية هي مفهوم لأنه ملخص تجريد لمجموعة من الظواهر يمكن ملاحظتها والتي يمكن أن تشمل أخذ القرارات سواء في الشؤون الاقتصادية والمنزلية والاجتماعية. إذن يمكن أن نعرفه في البداية بأنه أخذ القرارات الهامة، لكن نلاحظ فيما بعد أن هذا التعريف هو تقريبي وغير كاف إذن يجب تدقيقه. هذا التحديد المفهمي هو مرحلي أي مؤقت إلى غاية الوصول إلى تحديد دقيق. بعبارة أوضح بعد تحديد المفاهيم التي سنستعملها نقوم بوضع تعريف مبدئي (24) لكل منها، والغاية من ذلك هو تفادي العموميات حتى نتمكن من تحديد أكثر لموضوع الدراسة وبذلك يمكن إتمام المراحل اللاحقة بدقة

المرحلة الثانية: تحديد أبعاد المفهوم: Définition des concept dimensions du

بما أن المفهوم هو تصوير تجريدي فتجسيده على أرض الواقع يتطلب تفكيكه إلى عناصر، أي يجب إدراك المعنى الذي يحمله. كذلك يجب على الباحث أن يعي بأن المفهوم يأخذ أبعادا مختلفة. بمعنى آخر كل ما هو غير قابل للملاحظة والقياس مباشرة يمكن أن يضم إلى خانة الأبعاد، أي أنه درجة وسيطة بين التصور التجريدي (المفهوم) والواقع الملاحظ (25).

لنبقى في مثالنا السابق حول موارد الزوجين والسلطة الأسرية. لقد حددنا مفهوم موارد الزوجين على أساس أنها مختلف الوسائل التي يملكها كل من الزوج والزوجة. لكن يبقى التحديد غامضا لأنه لا يوضح الوسائل. إذن يجب علينا تحديدا أكثر لذلك نقول الوسائل هي:

المقدار المالي لكل منهما.

المستوى الثقافي المعرفي لكل منهما.

الحالة الجسمية لكل منهما.

الأصل الاجتماعي المهني لكل منهما.

هذه الوسائل تسمى أبعادا.

كذلك مفهوم السلطة الأسرية، إذا حددناه على أساس أنه هو الفعل الظاهري في أخذ القرارات الهامة في الأسرة، فهذا تحديد قاصر، لذلك يجب الذهاب إلى أبعد من ذلك من خلال البحث عن ميادين نشاطات الأسرة وهي أبعاد المفهوم.

البعد الاقتصادي.

البعد الأسري.

البعد الاجتماعي.

البعد التربوي.

البعد الصحي*

المرحلة الثالثة: تحويل الأبعاد إلى مؤشرات: Indicateurs

أي ترجمة الأبعاد إلى ظواهر قابلة للملاحظة، وهذا هو دور المؤشر لأنه هو الوحيد الذي يسمح بقياس مفهوم ما أي قياس علمي للواقع. فقياس وملاحظة الأبعاد لا يتم إلا عن طريق تحديد مؤشرات. مثلاً في الفرضية الآتية: "المناخ الاجتماعي في بلد ما يفسر نوع المجتمع في مرحلة تاريخية معينة". من بين أبعاد هذه الفرضية نجد البعد الاقتصادي في مرحلة تاريخية ما. إذا أردنا أن نتحقق في جزء على الأقل من هذه الفرضية يجب أن نبحت في الواقع على علامات ملموسة قابلة للملاحظة لهذا الوضع الاقتصادي والتي تسمى مؤشرات، فالمؤشرات الملاحظة في البعد الاقتصادي هي:

-الموارد التي تملكها الدولة.

- الاحتياطات المالية للدولة.

-التجارة الخارجية.

-سوق العمل.

-المديونية....

10- بناء المؤشرات:

لا توجد قائمة خاصة بمؤشرات كل بعد محددة مسبقاً ولكي نحصل عليها يجب أن نطرح دوماً السؤال: بأي علامة قابلة للملاحظة في الواقع يمكن التعرف على هذا البعد أو ذلك. للحصول على ذلك يستعين الباحث بتكوينه النظري وكذلك بحدسه البحثي وتجربته في هذا الميدان.

ففي مثالنا سابق الذكر حول موارد الزوجين والسلطة الأسرية نجد مثلاً:

-البعد المالي مؤشرات هي:

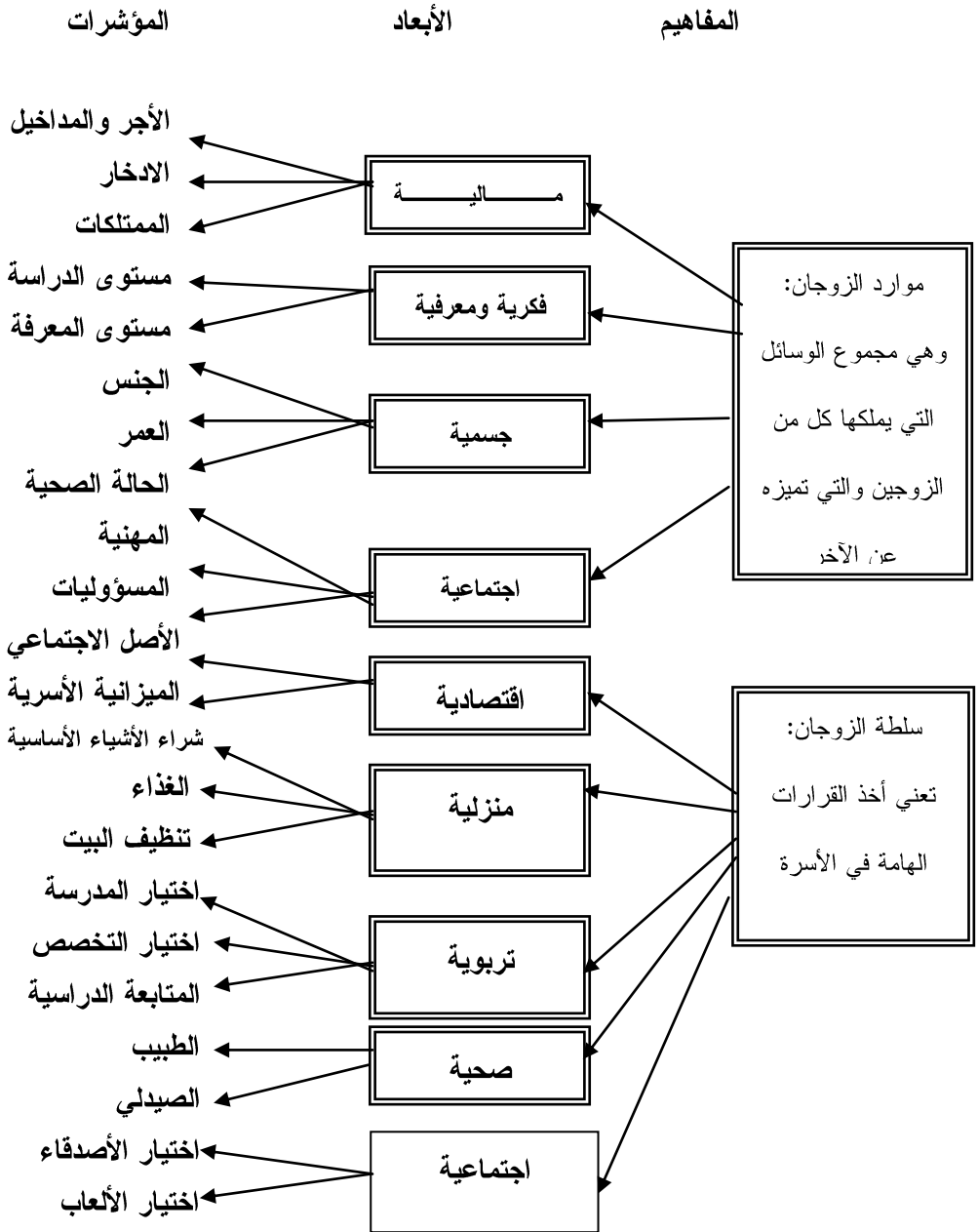
-الأجر.

-المداخيل.

-الممتلكات

خطاظة تلخص التحليل المفهمي للفرضية السابقة: (26).

الفرضية: موارد كل من الزوجين تحدد سلطتهما الأسرية.



11- أنواع المؤشرات: (27)

أ- المؤشر العددي: أو السلم النسبي Echelle de rapport ou indicateur numérique وهو قياس كمي يمنح قيمة عددية لمختلف أشكال المتغيرات. مثلا: الأجر الشهري:

10.000.00

من 20.000 إلى 30.000 دج

أكثر من 30.000 دج

ب- المؤشر النظامي: أو السلم النظامي Indicateur ou échelle ordinale وهو يهدف إلى تحديد الرتبة أو المكانة.

مثلا: ترتيب 4 شخصيات سياسية تتفق وطروحاتها. السلم هنا وضعنا له أربع درجات.

الشخصية السياسية	متفق معه تماما	متفق معه نوعا ما	غير متفق معه نوعا ما	غير متفق معه نهائيا
الشخصية 1				
الشخصية 2				
الشخصية 3				
الشخصية 4				

ج- المؤشر الاسمي: Indicateur ou échelle nominale

وهو الذي يقيم تمييزا مثلا الانتساب الديني:

-الإسلام - المسيحية - اليهودية -البوذية.

12 - خصائص المؤشرات: (28).

أ-الصدق: Validité

وهي مسألة رئيسية وتعني قياس حقيقي لما يهتم الباحث فعليا. مثلا قياس فعالية قرار حكومي حول الدعاية لمنتوج دواء ما. فالمقارنة لمبيعات الدواء غير كافية حتى ولو كانت مرتفعة من سنة لأخرى .

2008	2007	2006	السنوات
%60 نسبة استهلاكه	%45 نسبة استهلاكه	%40 نسبة استهلاكه	اسم الدواء

هناك فرق كبير بين الشراء والاستعمال، لذلك يجب من أجل صدق حقيقي، أن يعتمد الباحث على مقارنة إضافية تتمثل في :

- استجواب عينة من المرضى المستعملين لهذا الدواء قبل نشر القرار الحكومي وبعده.

- مقارنة للكمية المستعملة لهذا الدواء قبل وبعد القرار.

ب- التوافق: Fidélité

يهدف التوافق إلى إيجاد نفس النتيجة كلما أعدنا عملية القياس، وعدم التوافق يعود في غالب الأحيان إلى سوء طرح الأسئلة أو غموضها من قبل الباحث.

ج- الدقة: Precision

وهي تؤثر على نوعية القياس.

مثلاً: هل أنتم موافقون على إعدام قاتلي الأطفال. نعم ☐ لا ☐

ولكي يكون السؤال أكثر دقة يجب أن يصاغ بشكل أدق في شكل قياسي.

هل أنتم موافقون على الإعدام بالنسبة لقتلة الأطفال.

☐ موافق تماماً

☐ موافق نوعاً ما

☐ غير موافق نوعاً ما

☐ غير موافق تماماً

13 - اختبار الفرضيات:

كما هو معلوم الاختبار هو أساس العلم، لذلك نركز على التجربة، لأن كل ما هو علمي فهو خاضع للاختبار والتجربة، من هذا المنطلق يشترط في الفرضية استلزامات

اختبارها من حيث توفر كل الشروط المنهجية وكذلك من حيث صياغتها ،علما بأن هناك فرضيات قابلة للاختبار بطريقة مباشرة وأخرى بطريقة غير مباشرة .

لكن هناك مسألة جد أساسية وهي: هل التجربة أو الاختبار وهما الحكم والفصل في علمية الأشياء،أي هما اللذان يفندان أو يؤكدان العلمية. في حقيقة الأمر حصل نقاش كبير بين زعماء تصورين مختلفين، تصور استقرائي يمثلته كرناب Carnap وتصور استنباطي يمثلته بوبر Popper. من هذا المنطلق نقول هناك فرضيات تختبر امبريقيا مثل الدراسات الفيزيائية وهناك فرضيات تختبر نظريا كما هو الشأن في الرياضيات أو بعض مجالات علم الفلك الفيزيائي Astrophysique.

خاتمة

يوضح الاستدلال السوسيولوجي بشكل جلي الخطوات التي يجب ويفترض إتباعها في الأبحاث التي تقوم على الطرح الافتراضي. كما يبين مميزات هذه المقاربة التي تضفي شرعية معرفية على البحث لأنها تقوم على عنصرى الدقة والموضوعية. إضافة إلى أن هذا التوجه يسمح للباحث بالتحكم في موضوعه من خلال تفكيك المفاهيم إلى أبعاد ومؤشرات التي تمكنه من ملاحظة وقياس الواقع حتى يصل إلى مقارنة بين النموذج النظري المصاغ والمعطيات الميدانية المعاشة وبذلك يدرك العناصر المتحولة والثابتة في الظاهرة والمكانزمات الفاعلة.

الهوامش:

- (1) لقد شن شارل بيغي (Charles Pegy) وهو أحد أعمدة الشعر الفرنسي (1873-1914) حملة شعواء عندما اعتلى دوركهايم (Durkheim) كرسي علم الاجتماع في جامعة السوربون واتهمها بأنها سقطت في الكلامية.
- (2) يجب أن نذكر بان الجامعات الغربية آنذاك كانت تعتمد على تراتبية في العلوم ومنحت هي وأصحابها مكانة خاصة نظرا لانجازات العلوم الدقيقة في العديد من المجالات.
- (3) لقد حاول الوضعيون Les positivistes الذين يقرون بان الفكر الإنساني وصل إلى المرحلة الوضعية أي استخدام العلم والمنطق بعدما كان فكرا ميتافيزيقيا ثم لاهوتيا أن يقوموا بقراءة المجتمع كما تقرأ الطبيعة لان المجتمع يخضع بدوره إلى قوانين ودور علم الاجتماع هو إذن اكتشافها ويجب التعامل مع الظواهر الاجتماعية دون انهيار أو كراهية كما هو حال العلوم الطبيعية التي تتعامل مع الظواهر كمواضيع للملاحظة " وفي هذا الصدد يقول "إ. دوركهايم Emile Durkheim " يجب معالجة الظواهر كأشياء Traiter les faits sociaux comme des choses علما بان مرسيل موس Marcel Mauss أحد تلامذة دوركهايم والمقربين منه استدرك هذه المسألة قائلا " الظاهرة الاجتماعية هي فريدة وتاريخية"، لذلك النقد الذي قدم لاحقا لدوركهايم بأنه أسس علم اجتماعي Un sociologisme وليس علم اجتماع Une sociologie لأنه غالى بتفسير الاجتماعي بالاجتماعي. (انظر في هذا الشأن : R.Aron, « les étapes de la pensée sociologique » éd, Gallimard, Paris, 1974 .
- (4) يمكن العودة إلى كتاب كارل بوبر: K.Pooper : « La logique de la découverte scientifique », Paris, Payot, 1982.
- (5) P.Bourdieu, J.C.Chamboredon, J.C.Passeron : « Le métier de sociologue », Paris, Mouton, 2ed, 1973.
- (6) G.Gurvitch : « Traité de sociologie », Paris, Puf, 1960.
- (7) R.K.Merton : « Eléments de théorie et de méthode sociologiques », Brionne, Ed G.Monford, 1983.
- (8) -E.Morin : « La complexité humaine », Paris, Ed Flammarion, 1994.
- E.Morin : « Sociologie », Paris, Fayard, 1984.
- (9) G.Bachelard : « La formation de l'esprit scientifique », Paris, Librairie philosophique, 1965.
- (10) M.Angers: «Initiation pratique à la méthodologie des sciences humaines », Quebec, Ed CEC inc, 1996.
- (11) Ibid.
- (12) على الرغم مما قدمه هذا الطبيب في مجال الميكروب وبخاصة عندما أكد فكرة أهمية نظافة اليدين في المستشفيات إلا أن أعماله عرفت انتقادات عديدة من خصومه مما أدى إلى طبعها في سنوات متأخرة وبعد إلحاح من أقرانه و للمزيد من المعلومات يمكن العودة إلى:
- Louis-Ferdinand Céline : « Semmelweis et autres écrits médicaux », Paris, Gallimard, Coll L'imaginaire, 1977.
- (13) كانت النمسا والمجر يكونان آنذاك إمبراطورية موحدة تحت اسم الإمبراطورية النمساوية-المجرية-L'empire Austro-Hongrois.
- (14) حول فهم أدق للفرضيات يمكن العودة إلى:
- J.J Fromont : « Le schéma sociologique », Paris, Nathan, 1976.
- M.Grawitz : « Méthodes des sciences sociales », Paris, Dalloz, 1986.
- (15) يميز ريك مرتن R.K.Merton بين الفرضية النظرية (أي بناء مفهومي) والفرضية الميدانية . يمكن أن نقول بان الفرضيات في العلوم الاجتماعية قد تكون غايتها.
- تفسير مفهوم ما مثلا تجانس جماعة اجتماعية cohésion des groupes
- تفسير ظاهرة مثلا الانحراف
- تعميم حدث اجتماعي مثلا غيابات مجموعة مهنية (العمال المهرة)
- انتظامية ظاهرة ما مثلا نسبة الولادات وعلاقتها بالمستوى الاجتماعي الاقتصادي.
- (16) سواء أثبتت صحة الفرضية أم أدحضت فان البحث يبقى سليما حيث أن إثباتها يقر بصحة وجودها من خلال اختبارها وفق مؤشرات واضحة. وان وصلت النتائج إلى تكذيبها فهذا يدل على تغيرات تمت في الواقع وحينئذ يجب تأسيس مفهوم جديد يتماشى والواقع المعطى الجديد وهو ثراء معرفي معتبر.

(17) G. Bachelard : **op-cit.**

(18) A. Touraine « **Lutte étudiante** », Paris, Seuil, 1978.

(19) M. Grawitz : **op-cit.**

(20) S. Giroux, G. Tremblay : « **Methodologie des sciences humaines** », ed ERPI, Quebec, 2002.

(21) C.W. Mills « **L'imagination sociologique** », Paris, Maspéro, 1971.

(22) للمزيد من الإدراك والفهم لعملية تحويل الأبعاد إلى مؤشرات وأيضاً التحليل الرياضي لأسباب الظاهرة يمكن الرجوع إلى:

- R. Boudon, P. Lazarfield : « **L'analyse empirique de la causalité** », Paris, Ed Mouton, 1966.

- W. Doise, A. Clémence, F. Lorenzi-cioldi : « **Représentations sociales et analyse des données** », Paris, Puf, 1992.

(23) M. Angers: **op-cit.**

أحياناً يكون المرور من التجريدي إلى الملموس مختصر جداً. مثلاً مداخل الزوجين تعني المقدار المالي الذي يحصل عليه كل من الزوجين ولكن أحياناً أخرى يكون بطيئاً مثل الرضا في العمل الذي يعني عدة أشياء: المهام التي يقوم بها، العلاقة مع الزملاء، مع الإدارة، محيط العمل، أوقات العمل. بمعنى أن المفهوم يتضمن عدة مظاهر في الواقع.

(24) الباحثان كيفي وكمينهود R. Quivy et L.V Campenhoudt يميزان بين المفاهيم النسقية Concepts systémiques وهي التي تأتي من نظرية علمية موجودة، والتي نحصل عليها من خلال مقاربة استنباطية Demarche deductive وبين المفاهيم الإجرائية Concepts opératoires التي تنتج من ملاحظة الواقع والتي نحصل عليها عن طريق الاستقراء Démarche inductive، ويشيران إلى أن عزل المفاهيم الإجرائية عن الأفكار المسبقة هي عملية صعبة جداً لكن يجب القيام بها حتى وأن كان المخزون المعرفي يحمل نوعاً من المعلومات القيمة وتساعد على تقدم العلم، وهي الطريقة المستعملة في الأبحاث النوعية. أنظر:

Q. Raymond et V. Campenhoudt: « **Manuel de recherche en sciences sociales** », ed Dumond, Paris, 1981.

(25) B. Escofier, J. Pagès : « **L'analyse factorielle simple et multiple** », Paris, Dunod, 1988.

* هناك حالات نضطر فيها إلى تقسيم الأبعاد إلى نصف أبعاد حتى نقرب من الواقع الذي نلاحظه، ونكون أكثر دقة مثلاً مفهوم التبادل échange في دراسة تبحث عن العلاقة الجوارية Relations de voisinage يمكن تفكيكه إلى أنواع التبادل أي أبعاد.

-تبادل حاجات.

-تبادل خدمات.

-تبادل معلومات.

فهذه الأبعاد غير دقيقة يجب إذن الغور أكثر حتى نتمكن من القياس وذلك بتحويلها إلى نصف أبعاد مثلاً في بعد المعلومات نجد:

-معلومات أسرية.

-معلومات اجتماعية.

-معلومات اقتصادية.

(26) M. Angers: « **op-cit**, P113.

(27) يمكن أن تكون المؤشرات عديدة لأن كل بعد يمكن ملاحظته من خلال عدة أعراض ملموسة لذلك يجب انتقاؤها حسب دلالة البعد وكذلك خصوصية ميدان الدراسة مع الإشارة إلى أنه لا يمكن الاكتفاء بمؤشر واحد لأنه يمكن أن يكون مخادعاً بينما عدة مؤشرات تقدم ضمانات أكثر من عملية التحقق. أنظر:

- M. Angers, **op-cit.**

- S. Giroux, G. Tremblay, **op-cit.**

- M. Grawitz : **op-cit.**

(28) R. Boudon : « **Les mathématiques en sociologie** », Paris, Puf, 1971.